من أدباء الصعيد في القرن السادس

الرشـــيد الأسوانى

للأستاذ محمود عزت عرفة

فى عام ٥٤٩ هـ قتل الخليفة الفاطمى الظافر بأعداء الله فى دار وزارته بالسيوفية ؛ وعهد بالأمر من بعده لابنه الفائز « عيسى » ؛ وقد أقيم وقتذاك بقصر الخلافة حفل كبير لتأبين الخليفة المقتول، أمَّه شعراء الدولة من كل إقليم، فأنشدوا مراثيهم حسب مراتبهم ؛ ثم نهض فى أخرياتهم رجل تتخطاه العيون ، أسود الإهاب ، عليه أطمار رثة ، وطيلسان من صوف ؛ فأنشد قصيدة أولها :

ما للرياض تميـــل سُكرا هل سُقّيتْ بالمُزْن خمرا ؟

... ولمـا وصل منها إلى قوله :

أفكـرْبلاء بالعـــرا قِ وكَرْبلاء بمصرَ أخرى ؟!

كان التأثر قد بلغ من الحاضرين مبلغه ، فجاشت قلوبهم بزفرات من الأسى ، وترددت أصواتٌ من البكاء والإعوال هنا وهناك ... وظل الحزن معتلجاً فى النفوس حتى فرغ الشاعر من إلقاء ما تهيأ له ، فغادر منبره وقد شَجِىَ وأشجى وكان أن رمقته العيون بنظرات الإعجاب والإكبار ، وانثالت عليه العطايا من الأمراء والحاشية والخدم وحظايا القصر ؛ وحُمل إليه من قِبَل الوزير — طلائع بن رُزِّيك — جملةٌ من المال ؛ ثم قيل له فى شبه اعتذار : لولا أنه العزاء والمأتم لجاءتك الخلع !

ذلكم هو شاعر الصعيد أبو الحسين أحمد بن على بن ابراهيم ابن الزبير الغسانى « الأسوانى » الملقب بالرشيد ، وصفه ياقوت فى معجمه فقال : « كان على جلالته وفضله ، ومنزلته من العلم والنسب ، قبيحَ المنظر ، أسود الجلدة ، جهم الوجه ، سمج الخلقة ، ذا شفة غليظة وأنف مبسوط كخلقة الزنوج ، قصيراً »

وترجم له كثير من المصنفين غير ياقوت : كالعماد الأصبهانى (صاحب الخريدة) ؛ وأبى الطاهر أحمد السِّلَفى ، وابن خلكان وكمال الدين الأدفوى .

على أن واحداً من هؤلاء لم يذكر لنا سنة مولده على وجه التحديد ، وإن كانوا قد أجمعوا على أنه توفى عام ٥٦٣ هـ[1]

(١) خالف ياقوت فى ذلك فذكر أنه توفى عام ٥٦٢ هـ والأول أصح

نشأته وأخلاقه

كان أبو الحسن من أهل الفضل والنباهة والرياسة ، ينتمى إلى بيت كبير واسع الثراء من بيوتات الصعيد ، وكان يداخل نفسه شيء من الكبر والأنفة والطموح ، وقد لازمته هذه النزعة طيلة حياته ، بل جنت عليه أكثر من مرة ، وأذاقته مرارةَ الكُره والشماتة من نظرائه ، والتحيُّف والعسف من ولاة بلده وحكامه

وما من شك فى أن مصرعه الرهيب على يد شاوِر وزير العاضد — كما سيأتى — ممـا يمت إلى هذه الصفات التى غلبت عليه بسبب قريب أو بعيد

لقد وصفه الشيخ الحافظ زكى الدين المنذرى فقال : كانت فى نفسه عظمة ! وقال عنه ابن شاكر الحموى فى مشيخته : كان الرشيد عالى الهمة ، سامىَ القدر ، عزيز النفس ، يترفع على الملوك ويرق بنفسه عنهم[1]

وذكره ابن أبى المنصور فى كتاب البداية فقال : كان قد اجتمعت فيه صفات وخلائق تمين على هجائه ، منها أنه كان أسود ، ويدعى الذكاء ، وأن خاطره من نار[2]

ولقد ضمه ليلةً — مع جمع من الفضلاء — مجلسٌ للملك الصالح بن رزيك ، فألقى عليهم مسألة فى اللغة عجزوا جميعاً عنها ، حتى أتى هو بفصل الخطاب فيها . فلما أبدى الملك الصالح إعجابه قال الرشيد مفتخراً : ما سئلتُ قط عن مسألة إلا وجدتنى أتوقد فهماً ... فقال محمود بن قادوس الشاعر وكان حاضراً :

إن قلتَ : من نارٍ خُـلِقْـــتُ وُفقْتَ كلَّ الناس فهما
قلنا : صدقْتَ فما الذى أطفاكَ حتى صرتَ فحما ؟

ومما قاله فيه ابن قادوس أيضاً ، وكان به مُغْرَى :

يا شِبه لقمان بلا حكمـةٍ وخاسراً فى العلم لا راسخا
سلختَ أشعار الورى كلها فصرتَ تدعى (الأسود السالخا) !

ويبدو أن الرشيد لم يكن يخلو — مع هذا — من حب الفاكهة ، والميل إلى التندُّر والمداعبة . ولقد كان مما قصه عن نفسه لبعض أصحابه أنه مر ذات يوم بموضع فى القاهرة ، فإذا امرأة شابة صبيحة الوجه تنظر إليه نظر مُطْمِعٍ فى نفسه ،

(١) ، (٢) الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد لكمال الدين الأدفوى ص ٤٩

وتشير بطرفها ، قال[١] : « فتبعتُها وهى تدخل فى سكة وتخرج من أخرى ، حتى دخلتْ داراً وأشارت إلىّ فدخلت ؛ ورفعتْ النقاب عن وجه كالقمر فى ليلة تمامه ، ثم صفقت بيديها منادية : يا ست الدار ! فنزلت إليها طفلة كأنها فلقة قمر . فقالت لها : إن رجعت تبولين فى الفراش تركت سيدنا القاضى يأكلكِ ! ثم التفتت وقالت : لا أعدمنى الله إحسانه ، بفضل سيدنا القاضى أدام الله عزه ! قال : فخرجت وأنا خزيان خجلا لا أهتدى إلى الطريق[٢] »

ثقافته الأدبية والعلمية

كان الرشيد كاتباً شاعراً ، فقيهاً نحويًّا لغويًّا ، منشئاً عروضيًّا مؤرخاً ، منطقيًّا مهندساً ، عارفاً بالطب والموسيقى والنجوم متفنناً[٣]

وقد ذكر صاحب الخريدة أن له رسالة «أودعها من كل علم مشكله ، ومن كل فن أفضله » قال الأدفوى[٤] : « وقد وقفت أنا على رسالته ، وهي تدل على جودة معرفته بالفقه والنحو واللغة والتصريف والأنساب والكلام والمنطق والهيئة والموسيقى والطب وأحكام النجوم وغير ذلك ... »

وقال محمد بن عيسى اليمنى : كان الرشيد أستاذى فى الهندسة . ويعتبر كتابه (جِنَان الجَنَان ورياض الأذهان) أهم مصنفاته وأشهرها . وهو يشتمل على مختارات جيدة لشعراء مصر ومن طرأ عليهم . وله غير هذا الكتاب مؤلفات أخرى أورد ياقوت فى معجمه منها :

كتاب « مُنيَة الألمعىّ وبُغية المدّعى » . كتاب « الهدايا والطرف »[٥] . كتاب « شفاء الغُلَّة فى سَمْتِ القِبلة » .

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ٤ ص ٥٩

(٢) تشبه هذه القصة ما حكاه الجاحظ عن نفسه إذ قال : ما أخجلنى قط إلا امرأة مرت بى إلى صائغ فقالت له : اعمل مثل هذا . فبقيت مبهوتاً ، ثم سألت الصائغ فقال : هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان فقلت : لا أدري كيف أصوره . فأتت بك لأصورة على صورتك !

(٣) معجم ياقوت ج ٤ ص ٥٢

(٤) الطالع السعيد ص ٤٢

(٥) يسميه البهاء الدمشقى « المجالب والطرف » وقد نقل عنه قطعة فى كتابه « مطالع البدور فى منازل السرور » ج ١ ص ١٢٨ : الباب التاسع عشر ، فى آنية الراح .

مجموعة رسائل وديوان شعر ... ومن شعر الرشيد قوله معاتباً بعض أصحابه :

لئن خاب ظنى في رجائك بعدما
ظننتُ بأنى قد ظفرتُ بمنصف
فإنك قد قلدتنى كل منّة
ملكتَ بها شكرى لدى كل موقف
لأنك قد حذّرتنى كلّ صاحب
وعلمتنى أن ليس فى الأرض من يفى !

ومن قوله فى الافتخار بنفسه :

جلَّت لدىّ الرزايا بل جلَّتْ هِمَمى
وهل يضر جلاء الصارم الذكر ؟
غيرى يغيِّره عن حُسن شيمته
صرفُ الزمان وما يأتى من الغِيَر
لو كانت النار للياقوت محرقةً لكان يشتبه الياقوت بالحجر
لا تُغرِيَنّ بأطماوى وقيمتها فإنما هى أصداف على دُرر
ولا تظن خفاء النجم من صغر فالذنب فى ذاك محمول على البصر

وروى عنه أبو الطاهر السِّلَفى (فى بعض تعاليقه) ما أنشده إياه لنفسه وهما بالإسكندرية :

سمحنا لدنيانا بما بخلتْ به علينا ، ولم نحفل بجُلّ أمورها
فياليتنا لما حُرمنا سرورها وُقِينا أذى آفاتها وشرورها

رحلته الى اليمن

سافر الرشيد الأسوانى إلى اليمن رسولاً ، داعياً للخليفة الفاطمى . ويبدو أنه قوبل هناك بحفاوة سرَّته ، وطاب له المقام حيناً ، حيث تقلد منصب القضاء والأحكام ولقب بـ « قاضى قضاة اليمن وداعى دعاة الزمن » ... ويقول ياقوت إن نفسه طمحت وقتذاك إلى رتبة الخلافة ... « فسعى فيها ، وأجابه قوم ، وسُلِّم عليه بها ، وضربت له السكة ، وكان نقش الكتابة على الوجه الواحد : قل هو الله أحد الله الصمد ، وعلى الوجه الآخر : الإمام الأمجد أبو الحسين أحمد[١] » .

(للمقال بقية) محمود عزت عرفة

(١) معجم ياقوت ج ٤ ص ٥٥